عند قدمي رمسيس

سعيد بكر

لفظ مرسال القطار القادم من جوف الصعيد .. قذفه أمام رمسيس .. ونفث أبخرته السوداء في وجه رمسيس في حنق وغضب .. اندفعت الأبخرة الخمقاء تزكم أنف الملك المختال . فعل في حدة ولعن اليوم الذي أسره فيه الحيثيون .. وصاح في ضيق في السماء الشاسعة من فوق رأسه .. نفرتاري .. منذ وقوفه منتصباً أمام هذه الأشياء القميئة والأسوار التي يبنيها الحيثيون من حوله خشية أن يفر إلى بلاده البعيدة .. يختال أمام وجهه وفي السماء العريضة المختنقة بالغبار وصياح القطارات ، وجه نفرتاري الخيب .. وصدرها الدافئ .. أما يعرف هؤلاء الحيثيون أنه لايحسر ملك على الهروب من أيدي الأعداء ؟ .. كيف يهرب ويسقط تاريخه القديم وتتصدع أسطورته ؟ .. فعل أن أنفاس سخومهم ولأبق منتصباً هنا ينظرجون على في بلاهة .. لن أهتم بهم .. هؤلاء الحيثيين الأغبياء .

ويتأمل مرسال رمسيس المختال وينثر الماء المتدفق من بين أصابعه ينثر على وجهه رذاذاً رطباً .. انتعش مرسال وعرض وجهه فاغراً فاه في بلاهة ليتلقى دفق الماء على وجهه .. كان يعاني من أبخرة القطار التي حلقت حول عنقه ووجهه وأسفل حاجبيه .. أشياء لزجة .. لكن قلبه في الصدر كان يتأرجح في غيطة متناهية .. مصر أخيراً .. مصر أم الدنيا .. وتخيلت له حكايات الأصدقاء القديمة عن مصر وروبلها وغرابتها ، وكم تمنى أن يأتي إلى مصر ليتم تعليمه المتعثر .

عادت تلك الغصة الحادة تشق حلقه .. تصاحبه كلما يتذكر انقطاعه عن مواصلة دراسته منذ وفاة والده ووراثته لأبجوة صغار وبضعة قراريط من الأرض .. الآن يأتيها عليلاً طالباً الاستشفاء .. ويتذكر آلامه فأشاح بوجهه عن عيني رمسيس الذي راح يشخص فيه النظر بعينين متآكلتين .. وحاول رمسيس أن يتذكر في أي مكان رأى هذا الوجه .. أما مرسال فكان يعرف رمسيس . لم يتحير .. ورأى نفسه منتصباً في شموخ ومن بين أصابعه يتدفق رشاش الماء الذي يأخذه الريح بعيداً .. ولكن حيناً ارتد مرسال إلى الخلف ليشق طريقه تعاثرت قدماه .. وأحس بهبوط .. وعاوده ذلك الألم القاتل ، وتمنى أن يجد الشفاء . وتهاوت إليه كلمات أمه وسط صخب العربات وأبواق السيارات :

– مع السلامة .. ولتعد إلينا معافى .

كان دائماً يرى سيل الدماء المتدفق بين البول الأصفر .. ويرى زوجه تتسرب كل يوم من بين فخذيه .. ويختفي في ألم .. سأموت قريباً في يوم ما .. لم يعرف أي الطرق يسلك .. كلها مزدحمة زاخرة بالعربات والسيارات والأجساد الفارة .. أشار إلى أحد العابرين .. لم يعره التفاتاً . أمسك بذراع أخرى لكنه كان متعجلاً فجذب ذراعه وحدجه في غضب وواصل طريقه .. تحير .. كاد الزام يأخذه بين أحضانه .. جذبه وعيه وقفز فوق الطوار .. تنهد .. وتشهد في حفوت .. لم يجد بداً .. جذب أحدهم في عنف وتساءل :

– أي الطرق تؤدي إلى مركز مكافحة البلهارسيا ؟

تكلم الرجل كثيراً .. أشار هنا وهناك .. لم يفهم مرسال ولكنه على امتداد ذراع الرجل تخبط في الأجساد . ودفعه أحدهم أسفل الطوار .. عاد إليه من جديد .. وشعر بالاختناق . فرفع ذراعه الخجرية ليمسح وجهه .. ورفع ساقه ليخفف عنها ثقل الجسد العالق . وتأمل الميدان الزاخر .. تنهد .. وصاح في السماء بصوت عال :

– نفرتاري .. لقد أسرني الحيثيون ..

لم يهتم به أحد .. ولم يسمع نحيبه المتصاعد نحو السماء . وطوى الآلام بين جوانحه وشعر بشيء يسري من بين فخذيه . أهي دماء جديدة ؟ .. ونظر إلى جلبابه . خشي أن يكون قد تلوث .. فتألم ودس يده في جيب جلبابه ودفع بالخطاب إلى الأمام في حفية عن عيون الناس .. وعاد يسأل شرطياً يقف عند ناصية الطوار :

– مركز مكافحة البلهارسيا .

قاطعه الشرطي في تأفف .. ولوى وجهه بعد أن دفع بذراعه على امتداد الشارع .. وواصل طريقه .. سقطت الشمس فوق رأسه . أفيت جسده فازدادت آلامه فطواها على مضض .. رفع يده ليجفف سيل العرق المنساب وتململ .. حرك رأسه .. وراح يتأمل الميدان من جديد وألقه فوق رأسه يصليه ناراً .. ربما إلى القرص الأصفر في جوف . وتوسل إلى أمون أن يخفف عنه حدة ناره .. لم يهتم أمون . فألقى ببصره تحت قدميه .. رأى النيل المتدفق من بين أصابعه .. فتهلل .. أيها الإله العظيم .. جثا على ركبتيه .. نظر إلى الوجه الحجري المنعكس فوق سطح الماء .. وصل في ضراعة .. ولكنه اشتاق إلى أن يغسل الجسد المتعب من عناء الأسر في مياه النيل العذب .. رفع قدميه ودس بها في بطن الماء ..

كان الماء دافئاً هو الآخر .. تأفف ولم يجد وسعاً فهبط بجسده حتى القاع .. ولكن حين اغترف أنفه من الماء .. تصاعدت رائحة كريهة إلى أنفه وتلمس في الماء رائحة عفنة .. كان الماء دهني الملمس . فصاح في غضب :

نفرتاري .. لقد لوث الحيثيون النيل العظيم .

رغم هذا ترطب الجسد الحجري العالق وارتوى فمه .. ولكنه آثر أن يزدرد قطرات من العرقسوس الطيب قبل أن يواصل سيره .. فقد أحس بالعطش .. توقف الرجل ليصب له كوباً من العرقسوس .. ازدرده عن آخره .. وشعر بارتياح .. وأوقف سائراً ليسأل في عجل :

– مركز مكافحة البلهارسيا ؟ ..

وتهادى إليه صوت طيب القرية الرحيم :

– لقد استحال المرض .. لاعلاج لك لديها .

فهمس في خفوت :

– أهي النهاية ؟

فقال الطبيب :

– علاجك في مصر .

وقالت الأم :

– فلتبع قيراطين من الأرض .

هتف في ألم :

– الأرض كل ماتملك الآن .

– أنت كل شيء لدينا

وهي تشيعه .. صاحت ودموع تتأرجح في عينيها :

– مع السلامة يا ولدي .. فلتعد لنا معافى .

ولج الباب الحديدي . سأل أحد الرجال .. أوزر له أوراق علاجه القديم فسمح له بالدخول أمام الطبيب .

قال الطبيب وهو يتطلع إلى الأوراق :

– دائماً تأتون إلينا بعد فضاء الأمر

فقال مرسال في هلع :

– أليس لديكم علاج لي ؟

– قال الطبيب في تأفف :

– لابد أن تقوم أولاً بفحصك

واحدوا منه عينات من البول والدم ولفظوه إلى الخارج من جديد .. تلفت

الطرقات بوجهه العظمي الأصفر .. تخبط في الأجساد .. مأوى فعاد بآلامه حتى الملك المختال ووجد من المتعب الأسحق ملاذاً فأسند رأسه وراح يغط في النوم قدمي رمسيس .. بغتة رمسيس .. تقلص عن جسده الأزلي فهبط من فوق الملك الأسحق .. أزاح جسد مرسال عن طريقه .. ونزل إلى الطريق يجد لقدميه مكاناً .. تدافع بالمنكبين وشق له طريقاً وسط الأجساد المحتشدة .. تأفف من الأحذية بأجساد الحيثيين .. الأعداء .. ولم يحفلوا به .. لم يكد يخطو خطوة واحدة حتى سدت الشرائط الحديدية طريقه .. عاد إلى الخلف .. اكتشف أن أسره حقيقي .. فهتف في غيظ هؤلاء الحمقاء نقضوا العهد .. وكيف ننسى الحرب على العظيمة ؟ .. كيف أسروني وعاودته الحنين إلى وجه نفرتاري الخيب .. فأحس بألم يشق صدره وراح يدعو أمون أن ينقذه من الحيثيين .. ترى هل أسروا نفرتاري أيضاً ؟ .. وصاح في غضب في الميدان .. نفرتاري .. لم يعره التفاتاً .. وخطوات ثابتة .. هبط نحو الشرطي القريب من الميدان .. ناداه قائلاً :

– أيها الخيق ابن نفرتاري حبيبي

أشاح الشرطي بوجهه ، ولوح بيده غضب :

– عد إلى مكانك ولاتربك الميدان ..

– هل أسرتم زوجتي نفرتاري ؟

قال الشرطي في صوت آمر :

– عد إلى مكانك وإلا حررت محضراً لأريحك المرور .

على مضض عاد رمسيس .. لم يجد مكاناً يسع جسده العالي سوى عند الحجري .. عاد وأزاح مرسال بقدمه . وألقى فوق المكعب حزينا يتأمل سطح النيل العظيم .. ولكنه وصرخ في وجه أمون الوردي أن يعود إلى نفرتاري الخيبة .

حينما هبط الليل .. عاودت مرسال آلامه الحادة .. ونزف دماً غزيراً لوث سرواله .. ولكنه لم يستطع أن يبكي صراخه .. خوفاً من أن يتنبه أحد . كان الميدان قد خلت الأقدام والأضواء . وأغلقت الحدائق بالميدان عيونها الكابية وأسدل ظلام خفيف .. لم تبق

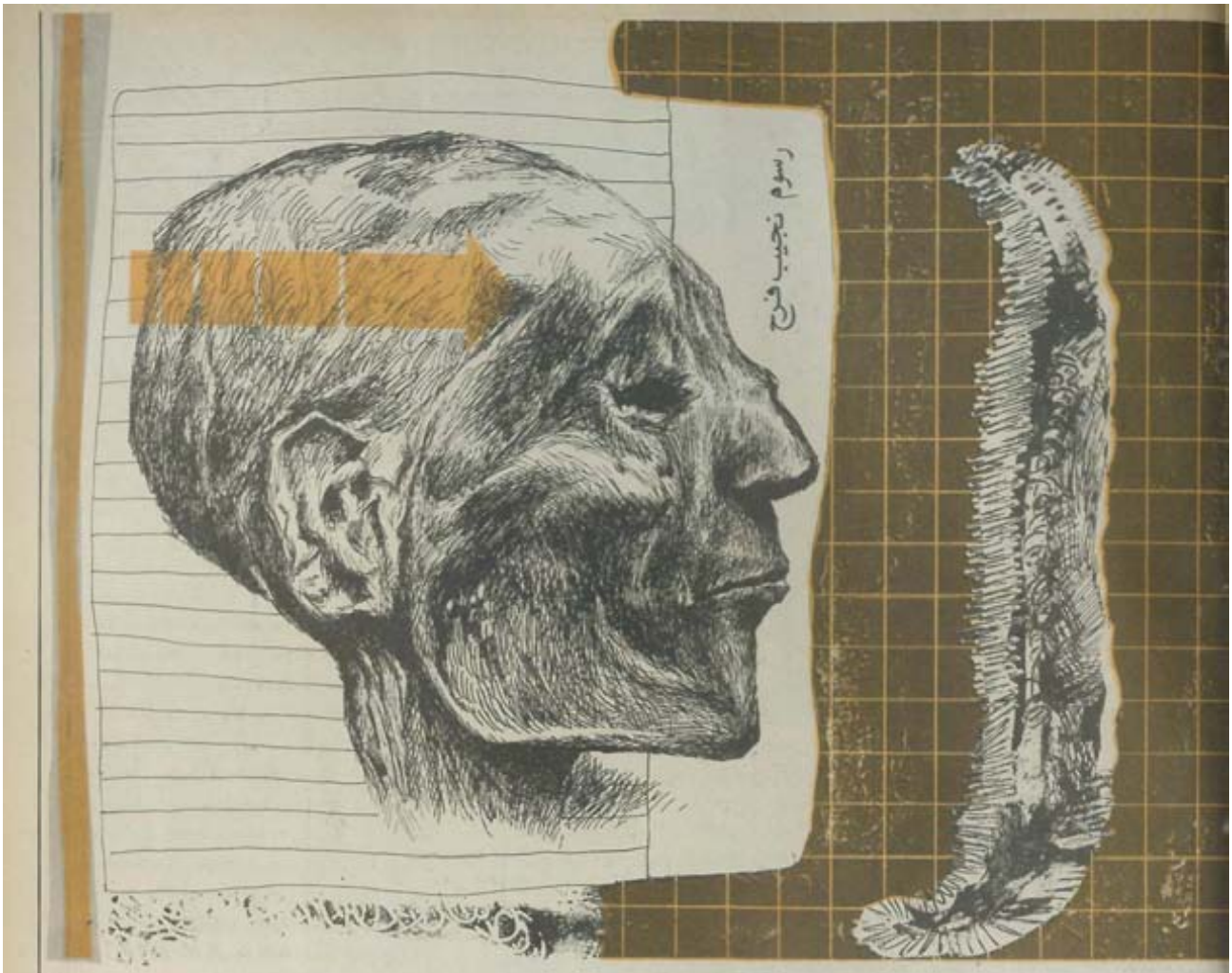

الأصباء الصفراء الباهتة . عوى مرة أخرى وتأكد من أن الدماء قد شقت لها طريقاً فوق فخذيه . طوى آلامه من جديد وتمسح بالمكعب الأسمنى . هدأت الآلام قليلاً . وجعل يتطلع إلى سرواله الداخلى . كان ملوثاً . كان عليه أن ينظف ثيابه فليس من المعقول أن يسير فى الطرقات حيثما تتوزع الشمس وثيابه ملوثة بالبقع الحمراء . تتفتق ذهنه فجأة . وأمعن النظر فى الباب الزجاجى الذى يعكس الضوء الأصفر الباهت . وعندما أوغل الليل خلع ثيابه . وفى خوف سقط فى الماء . أحدث سقوطه صوتاً . ووجد عينين متحمرتين تحدقان فيه . سحبه الشرطى توسل مرسال اليه . فى عجل عرض عليه ثيابه الملوثة بالدماء . لم يهتم الشرطى ولكنه لم يتركه إلى حاله حتى أخذ كل ما فى جيب مرسال .

فى الصباح قال الطبيب :

– عد إلينا غداً .

زم مرسال شفتيه . قال :

– لاأستطيع البقاء أكثر من ذلك .

وهتف رمسيس فى القضاء :

– أيها الخيريون الخياء . اطلقوا سراحى

قال الطبيب :

– فى صراحة ليس لدينا علاج لك . علاجك فى الخارج .

بوغت مرسال وهتف فى هلع :

– وكيف أذهب إلى الخارج ؟

عاوده تساؤله الخائر من جديد :

– هل الشفاء مأمول ؟

قال الطبيب :

– الشفاء بيد الله

وترجرج رمسيس لأمون المنتصب فوق رأسه غاضباً . وصاح فى غضب :

– نفرتارى . أطلق سراحى .

وسحب مرسال قدميه فى إعياء إلى ملاذه تحت قدمى الملك الختال . تذمر رمسيس من ذلك الذى يعوى تحت قدميه كل ليلة . فأزاحه بقدمه بعيداً . تطوح مرسال وسقط بعيداً عن قدميه . عاد مرسال وتوسد ذراعه طارياً بين جنبين عليلين تلك الآلام . وتساءل فى حيرة . كم من الدماء نزفت يا مرسال ؟ . . هل بقى من العمر شئ ؟ . . وتمثل له وجه أمه . . وتمنياتها له بالشفاء . . ولعلم اليوم الذى وطئت فيه قدماه مصر . تنهد . وصرخ فى غضب :

– أيها رمسيس الصامت . ألا تتكلم .

غمغم رمسيس فى ضيق . وصاح فى مرسال :

– أيها الرجل . . أنت تقض مضجعى .

قال مرسال للملك الختال :

– انت لم تشعر بألمى .

ثم لوح بيده فى وجه رمسيس حانقاً :

– لقد ماتت قلوب الأحياء يامليكى الصامت

فقال رمسيس فى صوت آمر :

– إن طاعة الملوك واجبة .

قال مرسال فى حنق :

– علاجى فى الخارج . هل تسمع عن الخارج ؟

صاح رمسيس :

– هل أسرعم نفرتارى وأرسلتموها مسبية إلى الخارج ؟

غمغم مرسال :

– هل رأيت الدماء تنزف من بين فخذيك ؟

نظر رمسيس مابين فخذيه وتساءل فى تأفف :

– الدماء ؟

– وأيضاً الموت .

قال رمسيس :

– إن مت فسآمر الأحياء بتحنيط جثتك .

– مافائدة التحنيط بعد الموت ؟

– إنه الخلود .

زمجر مرسال وقال للملك الختال :

– الموت . . إنه الخراب .

وتذكر أمه واحتواه الصغار وبضعة القراريط . ولأد رمسيس بصمته . وراح مرسال يشق السكوت المخيم بصرخاته المتتابعة . وفكر فى العودة إلى قريته . وقال فى نفسه . . إن كان الموت محتوماً فلأمت بين أحضان قريتى . ولكن الشرطى أخذ كل مايملك . . وفكر فى وسيلة للعودة .

قبيل الفجر برحت تمرسال الآلام . نزف دماً غزيراً . واستشعر طعم الدماء فى فمه . . وأدرك أنه الموت المحتوم . . فكر رمسيس فى قدميه . تأمل رمسيس فى غضون . . ونظر إليه . . هتف :

– مابك ؟

صاح مرسال فى ألم :

– إنى أحتضر .

وتضرع رمسيس لأمون أن يرأف بعبده . . وأن يسلب روحه دون ألم . . ورنا مرسال إلى الميدان . . حدق فى الماء الساكن أمامه ولفظ أنفاسه . . انتظم رمسيس . . أدرك أنه مات . . فبكى بكاءً حقيقياً .

كانت دموع رمسيس صافية رائقة . . ليست دهنية المذاق . ولاتسح فيها البهارسيا □